رؤيةُ العالَمِ بوصفها أداةً إجرائية لمقاربة الحداثة

نصر الدين بن سراي*

الملخص

يعرض البحث لمسألة الحداثة التي تعني جملة من التصوُّرات الفكرية التي نشأت في الغرب خلال حقبة لا تقل عن قرنين من الزمان، مُبيِّناً أن سبر أفكار الحداثة التي ما تزال تُسهِم في تشكيل الحضارة الغربية يتطلَّب عُدَّة منهجية، في عصرٍ تتعدد فيه المناهج وتتنوع بحسب التخصصات. ومن بين المناهج الجديدة التي نحاول استخدامها في دراسة الفكر الفلسفي الحداثي ما نُسمِّيه "رؤية العالَم" بوصفها أداةً إجرائيةً تُسهِّل علينا عملية المساءلة، وممارسة النقد، وتوجيه حزمة من الأسئلة تختصّ بالمشروع الحداثي وتصوُّراته عن العالَم.

ويهدف البحث إلى إثبات أن الحداثة هي رؤية تضم في مكنونها بنى فكرية نسعى إلى اكتشافها من أجل النقد، وأنها تدّعي الكونية وأنها تحمل الخلاص.

الكلمات المفتاحية: الحداثة، رؤية العالم، أداة إجرائية، عدة منهجية.

Worldview as a Procedural Instrument to Approach Modernity

Nasruddin Ben Serai

Abstract

The paper deals with the issue of modernity which is known to have certain intellectual perceptions that has developed in the West during two centuries or more. Modernity continues to shape Western civilization; the exploration of its ideas requires certain methodological equipment, especially in this age of multiple approaches and specialties. Worldview is one of the new approaches that is being used in the study of modern philosophical thought. Worldview is considered as a procedural instrument that facilitates raising questions and practicing criticism of modernity project and its perception of the world.

The purpose of the study is to prove that modernity is a worldview that includes certain intellectual structures to be discovered and criticized, in order to deal with modernity's claims of universality and its possibility of providing salvation.

Key words: Modernity, Worldview, Procedural instrument, Methodological equipment.

* دكتوراه فلسفة القيم وابستمولوجية العلوم الإنسانية، جامعة لمين دباغين، سطيف٢. البريد الإلكتروني: benserai20@gmail.com

تم تسلم البحث بتاريخ ٢٠١٦/١١/٢٨م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢٠١٧/٧/١٩م.

مقدمة:

إن تعدُّد المناهج والقراءات الفكرية والفلسفية يعني بالضرورة تعدُّد مناحي القضايا المطروحة في الفكر الفلسفي. ومن أكثر أنواع القراءات تعقيداً تلك التي ينماز موضوعها بالصيرورة والتحوُّل والتغيُّر، شأنه في ذلك شأن موضوع الحداثة الفلسفية في الأزمنة الحديثة؛ ما يتطلَّب البحث عن منهج معياري مناسب يكون مسلكاً لقراءة الفكر الحداثي الغربي.

وهنا يظهر الاختلاف جلياً بين الباحثين الذين يسعون إلى تعرُّف كُنْه الحقبة الفكرية المنشودة التي قد تمتد زمناً طويلاً، والتي تأبى التحديد والفهم. وإذا نظرنا إلى هذا الموضوع بوصفه مشروعاً فيمكن القول إنه لم يكتمل بعدُ. غير أن المناهج والتصوُّرات والمفاهيم قد تحمل في ثناياها ما يساعد على إيجاد آلية إجرائية، تبدو أشبه بالمقولة المفهومية، بحيث تُشكِّل إطاراً للفهم في مقاربة الحداثة، فيما يُعرَف برؤية العالم، التي يُصنِّفها بعض الدارسين ضمن مُسمّى الرؤية الوجودية، ونظرة كل إنسان إلى العالم والوجود. وقد تشير أيضاً إلى إطار الأفكار والمعتقدات التي تُشكِّل وصفاً عالمياً للفرد، أو المجموعة، أو الثقافة، والتي يمكن بها تفسير العالم والتفاعل معه. إن فوضى المناهج، وتعدُّد المقاربات السياسية والاقتصادية والأنثروبولوجية والوضعية، يُؤكِّد حاجتنا إلى بناء منهج موحَّد يشمل القراءات جميعاً، بحيث تبرز رؤية العالم بوصفها إجراءً أو أداةً منهجيةً لتحليل الفكر الحداثي.

فعن طريق هذه الأداة وما تنطوي عليه من إحكام المساءلة، وفن صياغة الأسئلة الكبرى، يمكن مقاربة المشروع الحداثي وتوجيهه تبعاً لمجموعة من الأسئلة التي ما انفك الوجود الإنساني يبحث بها وعنها. وسنحاول في هذا البحث استخدام هذه الأداة، ولفت الانتباه إليها، مُبرِزين أهمية الأسئلة الكبرى التي تحاول رؤية العالم الإجابة عنها. ولبيان هذه المنهجية المعرفية، فقد اعتمدنا الأسئلة الآتية بوصفها مدخلات ومخرجات للموضوع:

- ما المقصود برؤية العالَم؟
- ما مسوغات استخدام هذا الدالّ المفهومي (رؤية العالَم في مقاربة الحداثة)؟
- ما ضوابط التساؤلات الفلسفية في مقاربة مفهوم "الحداثة" بوصفها رؤية للعالَم؟

وتتأكَّد قيمة هذا البحث المنهجي بعد ما أصبح التفكير الفلسفي المعاصر يُمثِّل أحد منظورين: بناء رؤية وجودية جديدة للعالم، أو إصلاح رؤية قديمة، لم تعد فاعلة في الحياة الواقعية، والعمل على بعثها. وتتيح لنا هذه المقاربة الكشف عن نظام البنية الفكرية لأيِّ مذهب فلسفي، بطرح جملة من الأسئلة الكبرى عن الحقل الوجودي، والإبستمولوجي، والأكسيولوجي.

أولاً: تعريف مصطلح "رؤية العالم" لغوياً وفلسفياً

١. الدلالة المعجمية اللغوية لمصطلح "رؤية العالم":

يحفل مصطلح "رؤية العالم" في المعاجم اللغوية بمعانٍ ودلالات تكشف عن الثراء والتعدُّد الذي يحظى به هذا المصطلح؛ فلفظ "الرؤية" Vision يعني المشاهدة بالبصر في كل زمان ومكان؛ أي في الدنيا والآخرة.[١] والرؤيا: ما يُرى في النوم، والجمع: رؤى، وقد يُطلَق هذا اللفظ على أحلام اليقظة. أمَّا الرؤية فهي إدراك الأشياء بحاسة البصر؛ فالرؤيا تكون بالخيال، والرؤية تكون بالعين، والرأي يكون بالقلب، ومنه رؤى المصلحين الاجتماعيين.[٢]

والمشاهدة بالبصر قد يراد بها العلم مجازاً، وإذا رافقتها الإحاطة سُمِّيت إدراكاً. وتُطلَق مفردة "الرؤية" في الفلسفة الحديثة على حاسة البصر، وفي حال أُطلِقت على المشاهدة بالنفس فإنها تُسمّى حدساً. وقد تُطلَق الرؤية على مشاهدة الحقائق الإلهية بالوحي، أو الإدراك بالوهم، أو المشاهدة بالخيال. وتنص نظرية الفيلسوف ماليرانس على أن الإنسان

[١] الجرجاني، علي بن محمد السيد الشريف. **معجم التعريفات**، القاهرة: دار الفضيلة، ط٢، ٢٠٠٦م، ص٩٤.
[٢] صليبا، جميل. **المعجم الفلسفي**، لبنان: دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٨٢م، ج١، ص٦٠٤.

لا يُدرِك الأشياء والقوانين مباشرةً، وإنما يُدرِك صورها في الله لاتحاده المباشر به؛ فتسمى الرؤية في الله: Vision en Dieu.[٣]

وقد تحمل الرؤية معنى التصوُّر Concept في الفرنسية؛ فتصوُّر الشيءِ يعني تخيُّله، وتصوَّر الشيءَ: استحضر صورته في ذهنه. والتصوُّر عند علماء النفس هو: حصول صورة الشيء في العقل من دون تصرُّف فيه، وعند المناطقة: إدراك الماهية من غير أنْ يُحكَم عليها بنفي أو إثبات (كما هو عند الجرجاني في تعريفاته). وهو يفيد أيضاً معنى النظر الذي يراد به تقليب الحدقة الصحيحة نحو المرئي؛ التماساً لرؤيته. وقد يُذكَر بمعنى الانتظار، أو يراد به التفكُّر بالقلب الذي يؤدي إلى البصيرة (الفكر). أمّا التأمُّل فهو الملاحظة الداخلية لحال المنظور فيه، ليعلم وجه بيانه على علوم الحس في الموافقة والمباينة،[٤] وهو أيضاً ترتيب أمور ذهنية يُتوصَّل بها إلى أمر آخر؛ فإنْ صحَّت المقدمتان والترتيب فالنظر صحيح، وإلا ففاسد.

أمَّا الشق الثاني من المصطلح (العالم) الذي يشار إليه بالفرنسية: Univers monde، وبالإنجليزية: Universe, Word، فيعني "كل ما سِوَى الله من الموجودات، لأنه يعلم به الله من حيث أسماؤه وصفاته."[٥] والعالم: "بالمعنى العام مجموع ما هو موجود في الزمان والمكان، أو مجموع الأجسام الطبيعية كلها من أرض وسماء (ابن سينا، رسالة الحدود)، أو كل ما سِوَى الله من الموجودات قديمةً كانت أو حديثة." أمَّا العالَم بالمعنى الخاص فيُطلَق على جملة الموجودات من جنس واحد، مثل قول ابن سينا: "يقال عالم لكل جملة موجودات متجانسة كقولهم: عالم الطبيعة، عالم النفس، عالم العقل. قال الغزالي: "والعوالم كثيرة لا يحصيها إلا الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (المدثر: ٣١)، وإنما خبره من العوالم بواسطة الإدراك، وكل إدراك من الإدراكات إنما خُلِق ليطَّلع الإنسان به على عالم الموجودات، ونعني بالعوالم أجناس موجودات."[٦]

[٣] المرجع السابق، ص٢٨٠، ٦٠٥.
[٤] مجموعة من المؤلفين. **شرح المصطلحات الكلامية**، لبنان: دار البصائر، ط١، ص٣٦٨-٣٧٠.
[٥] الجرجاني، **معجم التعريفات**، مرجع سابق، ص١٢٢.
[٦] الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت٥٠٥هـ). **المنقذ من الضلال**، تحقيق محمد محمد أبو ليلى، ونور شريف عبدالرحيم رفعت، واشنطن: نشر جمعية البحث في القيم والفلسفة، ٢٠٠١م، ص ٢٦٨.

٢. الدلالة الفلسفية لمصطلح "رؤية العالم":

بدأ الخوض في مسألة رؤية العالم في عصر النهضة ضمن تجربة الحداثة الغربية، وبخاصة في النموذج الفلسفي الألماني المثالي، ومن التراكيب الألمانية التي ذاعت في هذا المضمار تركيب Weltanschauung الذي يشير إلى قِدم مصطلح "رؤية العالم"، حيث يمكننا أنْ نُؤرِّخ له تحديداً بكتابات الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤م). يقول سمير أبو زيد في ذلك: "النظرة إلى العالم هي بشكل خاص نحت ألماني، ظهرت أولاً في استعمالها الطبيعي في عمل كانط "نقد ملكة الحكم"، بديهيات العالم-word intuition بمعنى تأمُّل العالم الراجع إلى الإحساسات... أنْ نأخذ العالم كإدراك بسيط للطبيعة بالمعنى الواسع... هذا الاستعمال انتهى في ثلاثينيات القرن الماضي؛ القرن ١٩."[٧] وخلافاً لما هو شائع، فإن استخدام هذا المصطلح لا يقتصر على الفلسفة، وإنما يتجاوزها إلى فضاءات أخرى عديدة، تتمثَّل في علوم اللاهوت، والأنثروبولوجي، والتربية. ولعل علاقة هذا المصطلح بالفلسفة الألمانية هي خير شاهد على الذهنيات الفكرية التي تنسج شبكة المفاهيم في مختلف أنحاء العالم، ويُعْزى سبب ميل الألمان واهتمامهم -في بعضه- ببناء الأنساق إلى غياب ألمانيا عن ميدان السباق الأوروبي نحو السيطرة العالمية.

وفي هذا الصدد، يقول جورج قرم: "غير أن ألمانيا كانت غائبة عن السباق المحموم إلى غزو العالم، وعن المنافسات التوسعية الاستعمارية؛ إنهم شعب الموسيقيين والشعراء، وليسوا شعباً احترابياً، وإن ألمانيا هي بشكل خاص الأُمة الماورائية بامتياز. ولقد عوَّضت ألمانيا هذا الضعف، وعلى نحوٍ متسع، بكثافة نشاطها الفلسفي، ومراكمة المعارف الكتبية حول الحضارات الأخرى؛ ذلك أن الألمان اعتمدوا على الفكر، والتبحُّر المعرفي للاستيلاء على العالم والقبض عليه في أنساق فكرية كان من المُقدَّر لها أنْ تشمل على كل شيء؛ تفسير إدراك وتصنيف وتبويب والتنبؤ بمستقبل العالم، وربما هذا ما يُبرِّر إلحاق مصطلح الرؤية إلى العالم بالفلسفة الألمانية."[٨]

[٧] أبو زيد، سمير. **العلم والنظرة العربية للعالم: التجربة العربية والتأسيس العلمي للنهضة**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٩م، ص٨٠.

[٨] قرم، جورج. **تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب**، ترجمة: رلى ذبيان، بيروت: دار الفارابي، ط١، ٢٠١١م، ص٢٤٤.

وهذا المصطلح لم يضمَّ هذه الدائرة، وإنما اتَّسعت دلالاته، وأدّى استخدامه إلى ظهور مصطلحات أخرى تتداخل معانيها مع هذا المفهوم، أو تستخدم المعنى نفسه، ومنها: " نظرة أو رؤية Vision، وصورة Image، وتوجه معرفي Cognitive orientation، ورؤية معرفية Cognitive vision، ومنظور رؤية العالم Worldview perspective، وافتراضات أساسية Basic orientation، ومبادئ متضمّنة Implicit premises، وافتراضات أساسية Basic assumptions، وروح الثقافة Ethics، وخرائط معرفية Cognitive maps، ونحو ذلك. ومن هنا فإن رؤية العالم قد تشير إلى الأنساق الإدراكية، والرمزية، فضلاً عن العقيدة وأنساق المعرفة، والقيم، والثقافة، والفكر والتفكير."[٩]

والغرض من إيراد هذه التقنية النقدية هو ربط رؤية العالم (مصطلحاً، ومفهوماً) بالسياق الألماني، وتأكيد أن هذه الرؤية تُمثِّل ظاهرة إنسانية مرتبطة بالإنسان، بوصفه كائناً ينزع إلى خلع المعاني على الأشياء؛ "فما أنْ يعتزل الإنسانُ الناسَ حتى يحضره شعور بالفراغ الكوني، ولكن طريقته في ملء هذا الفراغ هي التي تُحدِّد نمط ثقافته وحضارته؛ أي جميع الخصائص الداخلية والخارجية لوظيفته التاريخية، وانعدام الفراغ الكوني في تقاليد الثقافة الإنسانية تعكس في تأويل العالم بنسق تصوري وقيم مجتمعية وغايات ومقاصد ودلالات للأفعال."[١٠] فلكل فرد من بني البشر رؤية للعالم سواء أدرك ذلك أو لم يدرك؛ ولكل إنسان افتراضات وصور وتحيزات تُؤثِّر في طريقة رؤيته للوجود والحياة. وهذه الافتراضات تتصف بقدْر من الثبات والتماسك، ولا يُشترَط فيها أنْ تكون صحيحة، وأنْ تشبه رؤية العالم؛ نتيجة التعليم والتنشئة والثقافة التي يعيشها الفرد، ويحدث هذا التشكُّل بصورة تدريجية بطيئة تشبه عملية الامتصاص الأسموزي.[١١]

ولتصوُّر رؤية العالم أهمية تتمثَّل في "معالجة مشكلة المعنى لارتباطه الوثيق بها -إذ كل فرد في الوجود يحمل تصوُّراً ولو ساذجاً- فمن خلال تصوُّر رؤية العالم يمكن التعرُّف على الحلول التي تُقدِّمها الثقافة لمشكل المعنى المتعلق بجوانب متعددة من حياة الانسان."[١٢]

---

[٩] عبد الفتاح، سيف الدين. **العولمة والإسلام: رؤيتان للعالم**، بيروت: دار الفكر، ط١، ٢٠٠٩م، ص٣٣.

[١٠] ابن نبي، مالك. **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، دمشق: دار الفكر،ط١، ١٩٩٢م، ص١٧، ٢٥.

[11] http://www.christianworldview.net/

[١٢] عبد الفتاح، **العولمة والإسلام: رؤيتان للعالم**، مرجع سابق، ص٣١.

ولا شك في أن رؤية العالم هي أشبه بالمراسي الرئيسة التي تُمثِّل أساسيات السلوك، ومُوجِّهات التفكير، ومُحدِّدات الذوق؛ ما يساعد على استخلاص القانون التاريخي الذي يتبدّى في ثبات الرؤية نحو العالم خلال مسارات التاريخ الثقافي للإنسان، أو التسليم بحتمية هذه الرؤية، ودورها الفاعل في مساعدة الإنسان على استكناه حقائق الأشياء، ومواجهة صراعات القُوى بمزيد من الثبات والشجاعة.

ورؤية العالم مصطلح فلسفي حديث يراد به النظر إلى العالم نظرة شاملة، بما في ذلك جميع الأجزاء، والعناصر، والـمُكوِّنات، والنظم. وبعبارة أخرى، فإن هذه الرؤية تعرض لحقائق الأشياء في إطارها الأشمل، وتُمثِّل قواعدَ وأُطراً مرجعيةً للفكر والسلوك ضمن نظام القيم العام للمجتمع، فضلاً عن الصورة التي يُدرِك فيها العقل الإنساني حقائق الكون والحياة والإنسان، وإجابات الأسئلة الوجودية والمعرفية والقيمية لهذه الحقائق.

ويتبيَّن ممَّا سبق أن هذا المصطلح يضم المفردات الكبرى الناظمة للوجود الكلي التي تُشكِّل مبادئ أولية بصورة قوانين ومعتقدات تنبثق منها -فيما بعدُ- أساليب في الحياة، ومقاصد في السلوك، ويمكن بها إثراء هذه الأساليب والسلوكات، وإعطائها المعنى المراد. ويضع "ملكاوي" تعريفاً آخرَ لهذا المصطلح يتجاوز رؤية العالم في غطائها الكلي إلى مستوى الفعل فيه، ضمن ثلاثة مستويات مترابطة:

" أ. **رؤية العالم أولاً**: تصوُّر ذهني للعوالم الطبيعية والاجتماعية والنفسية، بحيث تبدو أشبه بمجموعة من الصور الثابتة والمتحركة، يراها الانسان، فتلفت انتباهه، وتدعوه إلى التفكُّر والتأمُّل بقصد الفهم والإدراك.

ب. **رؤية العالم ثانياً**: موقف من العالم، أو حالة نفسية تعتري الإنسان، فتستدعي إقامة علاقة بهذه العوالم؛ علاقة تمكين، وتسخير، وسلام، وانسجام، وإجلال، وتهيُّب، ورغبة، ورهبة.

ت. **رؤية العالم ثالثاً**: خطة لتغيير العالم؛ أي مجموعة أهداف يسعى الإنسان بتحقيقها إلى جعل العالم أكثر انسجاماً وتوازناً، فيصبح أكثر تمكُّناً وقدرةً على توظيف أشياء العالم، وأحداثه، وعلاقاته، وتسخيرها لبناء حياة أفضل."[١٣]

ومن المُلاحَظ أن المفهوم الثاني لرؤية العالم يتضمن المعيارية؛ ما يعني أنه لا يقتصر على حدِّ تبنِّي رؤية ما، وإنما يهدف إلى تشكيل أسلوب حياة وَفْق تلك الرؤية، ثم نقل ذلك إلى الآخرين لتمثُّله في الوعي والفكر والسلوك، خلافاً للرؤى الفلسفية الزاهدة التي تكتفي بتقديم الرؤية إلى العالم، بل إن هذا المفهوم يتجاوزها، مُضمِّناً المعيارية في هذه الرؤية، التي تُعَدُّ مُولِّدةً للدافعية أو المعيارية.

ثانياً: الدلالة الحقلية لمصطلح "رؤية العالم"

يشترك مفهوم "رؤية العالم" مع مجموعة من المفاهيم، ويتقاطع معها. ومن أبرز هذه المفاهيم: النموذج، والنمط، والصورة، والميتافيزيقا، والأنطولوجيا الضمنية، والأيديولوجيا. وسنحاول فيما يأتي تبيان حدود علاقة مفهوم الدراسة بالنموذج المعرفي، والميتافيزيقا:

١. الرؤية إلى العالم والنموذج المعرفي:

يُعَدُّ النموذجُ المعرفي الوسيطَ بين الرؤية والمنهج الذي ينقلها من عالم القوة إلى عالم الفعل؛ وذلك بنقل الإجابات والأسئلة التي تُقدِّمها الرؤية بخصوص المنظومات الثلاث: الإله، والإنسان، والطبيعة؛ وبذلك تكون الرؤية هي القاعدة التي يتأسَّس عليها النموذج المعرفي، ولا يمكن اعتبارهما مترادفين.[١٤]

٢. الرؤية إلى العالم والميتافيزيقا:

يتَّفق مفهوم "رؤية العالم" مع مفهوم "الميتافيزيقا" على الأسئلة التي يطرحها كلٌّ منهما، ولكن استحسان اللفظ (أي رؤية العالم) يُعْزى إلى ما يحمله مفهوم

[١٣] ملكاوي، فتحي حسن. "رؤية العالم عند الإسلاميين"، **مجلة إسلامية المعرفة**، س١٢، عدد٤٥، ٢٠٠٦م، ص٥- ٣٤.

[١٤] عارف، محمد نصر. **مفهوم النظام المعرفي والمفاهيم المتعلقة به**، ضمن: **نحو نظام معرفي إسلامي**، تحرير: فتحي حسن ملكاوي، عمّان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٠م، ص٦٨.

"الميتافيزيقا"من دلالة سلبية. وبالمثل، فإن مفهوم "رؤية العالم" يتداخل مع مفهوم "الأيديولوجيا"، غير أن هذا الأخير يشير -بحسب عبد الله العروي- إلى خطاب خاص بالأفكار، وما تتضمنه من أحكام ذاتية؛ وتستعمل الإيديولوجيا بمفاهيم متعددة أحدها يتخص بالدور التاريخي لمجتمع ما، ذلك أن "أدلوجة عصر من العصور هي إذن الأفق الذهبي الذي كان يحد فكر إنسان ذلك العصر."[١٥]

٣. لماذا الرؤية إلى العالم؟ أو نحو بيان الداعي من استدعاء هذا الدال المفهومي في مقاربة الحداثة:

قدَّمَت الرؤيا الحداثية إلى العالم أنموذجاً، مُدَّعِيةً أنه كوني إنساني. وما إنْ ظهر هذا النموذج إلى حيز الوجود حتى أخذت آثار الرؤية الحداثية ونتائجها تُؤَكِّد بوضوح الاضطراب والتأزُّم الذي أصاب النموذج قيمياً، وكذا جميع العناصر التي نسجتها الرؤية الحداثية. ولمَّا كانت هذه النتائج تُمَثِّل اضمحلالاً وتقويضاً للمعنى والحياة، فقد كان لزاماً البحث عن أسلوب ناجع لإصلاح تلك الرؤية، يُؤَكِّد أهمية استيعاب تصوُّر الرؤية إلى العالم، وبخاصة الحداثي منه. والحقيقة أن الرهان الحقيقي تمثَّل في النظرة البديلة إلى العالم، وتجديد "النظرة إلى العالم، وبعث الحضارة"[١٦] الإنسانية التي تعثَّرت فيها أسئلة المعنى والوجود والحياة، وأُقصِيت منها فكرة التسامي واضمحلال في علاقة الإنسان بالمتعالى، وأضحى العالم عامةً يعاني حالةً من الانشطار و التشتُّت. "وخلال أكثر من جيل ونصف تجمَّعت لدينا الأدلة الكافية على أن النظرية القائمة على الخلو من كل نظرية هي أسوأ نظرية، ومن شأنها ليس فقط القضاء على الحياة الروحية، بل وأيضاً القضاء المطلق على كل شيء... ولهذا فإن إعادة بناء عصرنا لا يمكن أنْ تبدأ إلا بإعادة بناء نظرته إلى العالم، وليس هناك ما هو أشد أهميةً وإلحاحاً أكثر من هذا الذي قد يبدو لنا بعيداً ومجرداً. ولن يمكن قيام مجتمع ذي مُثل عليا وأهداف عظيمة... إلا إذا تشبَّعنا بفكرة إيجاد نظرية تسند الحضارة، ونستمد منها نحن جميعاً بواعث على الحياة والعمل."[١٧]

---

[١٥] العروي، عبد الله. **مفهوم الأيديولوجيا**، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط٥، ١٩٩٣م، ص١٠-١١.

[١٦] شفايتزر، ألبرت. **فلسفة الحضارة**، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، مصر: المؤسسة المصرية للطباعة والترجمة والنشر، ط١، ١٩٧٩م، ص٦٧.

[١٧] المرجع السابق، ص٧١.

فالإنسان لم يَعُدْ بعيداً عن الكون الذي يحيا فيه، وإنما أصبح صانعاً ومُشارِكاً في صياغة هذا الوجود بوصفه جزءاً من هذا العالم. "فبعد أنْ كان الإنسان يعتبر مخلوقاً يسكن كوكباً متواضعاً يدور حول نجم لا شأن له في مجرة تحوي ١٠٠مليار نجم آخر، أصبح الآن يقوم بدور المُشارِك في مسرحية كونية عظيمة، هذا إلى جانب "المبدأ الإنساني"، ومناداة أن جميع الأحداث الكونية -بدءاً بالانفجار العظيم فصاعداً- كانت قد صُمِّمت بحيث تسمح بوجود مخلوقات واعية في مكان ما من الكون الممتد، وفي حقبة من حقب تاريخه، كل هذه أدلة تحمل في طياتها الإقناع الكافي بنشوء تصوُّر كوني جديد للعالم."[١٨] وهذا يُؤكِّد خطر وضرورة امتلاك الإنسان رؤية إلى العالم في آن معاً.

وما زال لسؤال المعنى حضور في الحياة الإنسانية؛ إذ "يُشكِّل المعنى في حياة الإنسان خصيصة تُميِّزه عن نمطه في الكينونة إلى درجة يصحُّ معها تعريفه بأنه كائن رامز أو منتج للرموز والدلالات."[١٩] وهذا يعني أنه لا يكتفي بالحضور الجامد البارد مع العالم، وإنما يحاول إضفاء دلالات ومعانٍ لاستيعاب هذا العالم في أنساق مُدرَكة. "إذْ يعتزل الإنسان وحيداً، حتى ينتابه شعور بالفراغ الكوني، لكن طريقته في ملء هذا الفراغ هي التي تُحدِّد طُرُز ثقافته وحضارته؛ أي سائر الخصائص الداخلية منها والخارجية لوظيفته التاريخية."[٢٠] فحالة الفراغ الوجودي والكوني منعدمة لدى الإنسان.

إذن، فحاجة الفرد إلى العالم ضرورية. ووَفْقاً لتصوُّر الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر، فإن "الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعي وجوده."[٢١] فالوجود بهذا المعنى يُمثِّل حركة الإنسان في العالم، ومشاركته وتفاعله فيه بحسب تصوُّره له، وهذا ما يشير إليه الفيلسوف الألماني مارتن هديجر بقوله: "إن الوجود المنفتح للإنسان التاريخي... يبدأ عند اللحظة التي يستشعر فيها أول مفكر لا تحجب الموجود، ويبدأ فيها بالتساؤل عمَّا هو

[١٨] أغروس، روبرت، وستانسيو، جورج. **العلم في منظوره الجديد**، ترجمة: كمال خلايلي، الكويت: المجلس الأعلى للثقافة والآداب، سلسلة عالم المعرفة، عدد١٣٤، ١٩٨٩م، ص١٢.

[١٩] بوعزة، الطيب. "مفهوم الرؤية إلى العالم بوصفه أداة إجرائية لقراءة تاريخ الفكر الفلسفي"، **مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية**، مج٢، عدد٨، ربيع ٢٠١٤م، ص٢٣.

[٢٠] ابن نبي، مالك. **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ترجمة: بسام بركة، وأحمد شعبو، الجزائر: دار الوعي، ط١، ٢٠١٢م، ص١٧.

[21] J.P.S artre. *l'Etre et le Néant*, pris: Gallimard, 1951, P267.268.

الموجود. بهذا التساؤل يكون لا تحجب الموجود قد تمت معاناته والإحساس به لأول مرة... مدركاً على شكل حضور في حالة تفتح دائم... فالحرية؛ أي الدازاين المنفتح والمنكشف، هي التي تمتلك الإنسان، وذلك بشكل أصيل ممَّا يجعلها وحدها تُمكِّن الإنسانية من أنْ تخلق العلاقة مع الوجود في كليته وكما هو."[٢٢]

وتأسيساً على ذلك، فإن الإنسان يرتبط بالوجود ضمن علاقة تشمل نوعاً من التماثل بينه وبين العالم الذي يعيش فيه؛ ما يعني أن علاقة الإنسان بالعالم تقوم على نوع من التماثل مثلما تقوم على نوع من الاختلاف، وهذا الاختلاف هو كيفي لا كمي؛ فحقائق العالم كلها توجد في الإنسان،[٢٣] وذلك أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمكن أنْ يفهم هذا الوجود، ويتواصل معه؛ فوجود العالم من دون إنسان هو "وجود شبح لا روح فيه، فكان كمرآة غير مجلوة... فاقتضى الأمر جلاء مرآة العالم، فكان آدم جلاء تلك المرآة، وروح تلك الصور... لأن الله خلق العالم لكي يُعرَف، والإنسان وحده هو الذي يعرفه المعرفة اللائقة به والمعرفة الكاملة."[٢٤]

إن هذا المعنى الوجودي لرؤية العالم -في حضوره وملازمته للفكر الإنساني- يُؤكِّد الحاجة المُلحَّة إلى نظرية في الكون خاصة بهذا العصر. وفي ذلك يقول ألبرت أشفيستر: "فإن العصر الذي نعيش فيه يعوزه إدراك أهمية الظفر بنظرية في الكون؛ فإن اعتقاد العالم في هذه الأيام، سواء لدى المتعلمين أو غير المتعلمين، هو أن الإنسانية ستتقدَّم على نحوٍ مرضٍ تماماً دون الحاجة إلى نظرية في الكون على الإطلاق. والواقع أن كل تقدُّم إنساني يتوقف على التقدُّم في نظريته في الكون وعلى العكس... وافتقارنا إلى حضارة حقيقية مرجعه افتقارنا إلى نظرية في الكون."[٢٥]

---

[٢٢] هيدجر، مارتن. **التقنية، الحقيقة، الوجود**، ترجمة: محمد سبيلا، وعبد الهادي مفتاح، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٨٤م، ص٢٥-٢٦.

[٢٣] أبو زيد، نصر حامد. **فلسفة التأويل: دراسة في تأويل القرآن عند ي الدين بن عربي**، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٥٩.

[٢٤] ابن عربي، محي الدين. **فصوص الحكم والتعليقات عليه**، تحقيق: أبو الوفا عفيفي، مصر: دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٩٤٦م، ج٢، ص٨، ٩، ١٢.

[٢٥] شفايتزر، **فلسفة الحضارة**، مرجع سابق، ص٤-٥.

وعلى هذا، فإن الإنسان هو المُرشَّح لتقديم تصوُّر عن العالم، ولا يمكن لأحد غيره تقديم مفهوم عن "رؤية العالم" يخص الوجود الذي يعيش فيه؛ لأنه في قلب هذا الوجود حقاً. "فإذا كان الإنسان حاليا قد صار هو الأول والوحيد الذي يُمثِّل الذات بحق، فإن هذا معناه أنه قد أصبح هو الموجود الذي سيتأسَّس عليه كل موجود، سواء في كيفية وجوده أو في حقيقته... أي أنه أصبح مركزاً مرجعياً للموجود."[٢٦]

إذن، أصبحت الذات الإنسانية تتمثَّل العالم وتتصوَّره وَفْق رؤية معيَّنة؛ فهي "تنعطف على العالم بالإدراك والفكر مثلما ينعطف العالم على الذات بالاحتواء والتحديق، فهي تتمثَّل العالم، والعالم يَمْثُل أمامها كشيء ينكشف بشيئيته وبوجوده."[٢٧] وهذا يعني أن فكرة الكلي وضرورة امتلاك تصوُّر عن العالم ظلَّت تطارد الإنسان، ويُؤكِّد ذلك دراسات في علم الأناسة ماثلة، ولا سيما دراسة كريستوف فولف التي سمّاها (علم الأناسة: التاريخ والثقافة والفلسفة)، والتي يقول فيها نقلاً عن أرنولد جيلن: "فالإنسان الذي... لا يكون بنية رمزية مطابقة للعالم، وتشكيلاً دائم الفعالية كحاجاته، ونظاماً لمصالحه، يفسد كيانه تحت ضغط فائض النوازع الكابت، فيصبح مهدماً لذاته بالأهواس المرضية،"[٢٨] فصار حتماً قسرياً على الإنسان أنْ يعرف طبيعته، وموضعه (منزلته) في هذا العالم.

وما يزال صدى البحوث والأنثروبولوجيا والأركيولوجيا والدراسات العلمية يتردَّد في الأرجاء لسبر أغوار العالم، والبحث عن قانون كلي (أو نظرية الكل) يُفسِّر العالم والسِّير على نحوِ ما يدَّعي المنطق. والظاهر أن هذا المسعى البحثي له ما يُبرِّره فقط في العالم الجُوّاني للإنسان؛ فإن هذا الأخير لن تتوقَّف مسيرته حتى يجد ضالته، بأنْ يحظى بسؤال وجواب للحقيقة الكاملة التي تناسبه من الداخل. فـ "قد خبر العلماء والعقلانيون والفلاسفة شعوراً مشابهاً فهمه آينشتاين وفتجنشتاين وبوبر الذين شعروا بأُلفة مع الجزء

[٢٦] هيدجر، **التقنية، الحقيقة، الوجود**، مرجع سابق، ص١٥٩.

[٢٧] الزين، محمد شوقي. **الثقاف في الأزمنة العجاف: فلسفة الثقافة في الغرب وعند العرب**، الجزائر: منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠١٤م، ص٤٣٣.

[٢٨] فولف، كريستوف. **علم الأناسة: التاريخ والثقافة والفلسفة**، ترجمة: أبو يعرب المرزوقي، تونس: دار المتوسطة للنشر، ط١، ٢٠٠٩م، ص٨٦.

الواقع بين العقلاني والمتسامي الذي يتجاوز حدود العقل رغم عدم تديُّنهم بالمفهوم التقليدي للدين... أو لم ينشر ديكارت -مُؤسِّس الفلسفة الحديثة- بين الناس أن وجود الله أوضح وأكثر جلاء من أيٍّ من نظريات إقليدس الهندسية؟ ... وفي فترة مبكرة من العصر الحديث افتُتِن الغربيون بمبدأ اليقين المطلق الذي يبدو من المستحيل بلوغه، ولأن البعض كان يرفض التخلي عن هذا المبدأ فقد بالغوا في التعويض عن استحالة تحقيقه، بإسباغ اليقين على معتقدات وآراء لا يمكنها الصمود إلا فترة مؤقتة."[٢٩] إذن، فقد صار تشكُّل الذات الإنسانية مُتوقِّفاً على امتلاكها تصوُّراً للعالم الذي تتجلّى فيه سلوكات الإنسان جميعها، مُحدِّداً له حدوده، ومُبيِّناً له كيفية الانتظام بوصفه كائناً فاعلاً في الوجود. فإذا كانت رؤية العالم بهذه الأهمية الأنطولوجية، فما المفهوم الفلسفي لهذه المقاربة الأنطولوجية؟

ثالثاً: الحدود الفلسفية لمقاربة مصطلح "رؤية العالم"

١. علاقة المصطلح بالنسق الفلسفي:

ربما لا نجد تعريفاً جامعاً مانعاً لمصطلح "رؤية العالم"؛ لأن أغلب التعريفات والمصطلحات تتناول مصاديق الرؤية، وقد نجد له تعريفاً عند جيمس ساير James w.Sire الذي يرى أنه [تصوُّر العالم] التزام وتوجيه أساسي للقلب يمكن التعبير عنه بوساطة قصة، أو متوالية من الافتراضات: "الادِّعاءات التي قد تكون صادقة ولو جزئياً، أو كاذبة، والتي تتأسَّس شعورياً أو لا شعورياً، بشكل متسق أو متهافت على البنيان القاعدي للواقع الذي يُزوِّد الناس بالأساس الذي نحيا ونتحرك ونوجد فوقه، وعليه يدعونا جميعاً أنْ نتأمَّل في لغة تصوُّرات العالم؛ أي ألّا نعي أسلوب تفكيرنا فقط، بل أنْ نعي أسلوب باقي الناس أيضاً، فنتمكَّن بذلك أولاً من فهم الآخرين، ثم التواصل معهم حقاً من خلال مجتمعنا المتعدد."[٣٠]

---

[٢٩] آرمسترونج، كارن. **مسعى البشرية الأزلي، الله لماذا؟** ترجمة: فاطمة نصر، وهبة محمود عارف، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠١٠م، ص٤٨٤، ٤٨٦، ٤٨٨.

[30] James W. Sire. *The Universe Next Door: A Bassic Worldview Catalog*, 5 th edition, Intervarsity Press, 2009, p.15-16

وهذا التعريف -كما يتبدّى لنا- يجمع قيمة التصوُّرات للعالم، ويُؤكِّد الفعل القسري الشعوري أو غير الشعوري لفعل رؤية العالم؛ ما يعني أن مصطلح "رؤية العالم" يعني النظرة الشاملة إلى العالم في جميع عناصره ومُكوِّناته، "والصورة التي يُدرِكها العقل الإنساني عن حقائق الكون والحياة والإنسان، وإجابات الأسئلة الوجودية والمعرفية والقيمية بخصوص هذه الحقائق."[٣١]

وتأسيساً على ذلك، يمكن اعتبار المنظومات الفلسفية -منذ بدايتها- رؤية إلى العالم؛ فكل رؤية تسعى إلى تقديم تفسير وموقف من العالم الذي تعيش فيه وتتعامل معه، وكل الفلسفات المادية والروحية تُمثِّل رؤى إلى العالم، وتعمل جاهدةً على إيجاد تفسير واضح وخط يُحدِّد لها ملامح الإنسانية في أثناء مسيرتها، بحيث: "يبدأ الخط الأول من أفلاطون، ويمتد حتى المفكرين المسيحيين في العصور الوسطى، يتبعهم الغزالي، ثم ديكارت، ومالبرتاتش Malebranche، وليبنتز، وبركلي، وفيختـه، ووكدورث Cudworth، وكانط Kant، وهيجل، وماخMach ، وبرجسون في العصر الحديث. أما الخط المادي فيتمثَّل في طاليس، وأنكسمندريس، وهيرقليطس، ولوكريتوس، وهوبر، وجاسندري، وهلفتيوس، وهولباخ، وديدرو، وسبنسر، وماركس. وفي مجال الأهداف الإنسانية العملية يقف هذان التياران في الفكر الإنساني على طرفي نقيض، يمثل التيار الأول المذهب الإنساني، ويمثل التيار الثاني التقدم. إن الدين كما هو في المفهوم الغربي لا يؤدي إلى التقدم، والعلم لا يؤدي إلى الإنسانية." [٣٢] وسنجد أن جميع الأيديولوجيات والفلسفات والتعاليم العقائدية من أقدم العصور إلى اليوم يمكن إرجاعها إلى واحدة من هذه النظرات الثلاث العالمية الأساسية: النظرة الدينية، والنظرة المادية، والنظرة الإسلامية.

فالمثالية رؤية، والروحية رؤية، والوجوديو رؤية ونماذج تفسيرية. "والرؤية الكلية تمثل هي في جوهرها منظومة من الأفكار والمعتقدات التي يغلب عليها صفة العمومية، والتي يتبنّاها فرد أو مجموعة من الأفراد تتعلق بالعالم المحيط بنا، ومكانة الإنسان فيه، والعلاقة

[٣١] ملكاوي، فتحي حسن. **منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية**، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١١م، ص٤٤.

[٣٢] بيجوفيتش، علي عزت. **الإسلام بين الشرق والغرب**، ترجمة: يوسف عدس، مصر: دار النشر للجامعات، ط٢، ١٩٩٧م، ص٢٧، ٢٩.

بين الإنسان وعالمه، وعلاقة الإنسان بذاته، فضلاً عمَّا يتَّخذه الفرد وَفْقاً لتلك المنظومات من مواقف وآراء وأحكام حيال الكون والإنسانية والمستقبل."[٣٣]

وعلى هذا، فإننا سنعرض -بشيء من الإسهاب- لنموذج يُمثِّل الجدل الواقع بين هذا المصطلح والنسق الفلسفي من خلال الوضعية المنطقية؛ فالبحث عن المفهوم المنطقي لرؤية العالم في المدونات المنطقية يُحتِّم علينا أنْ نتحدث عن الوضعية المنطقية التي حاولت تقديم نظرة منطقية عن العالم، بدراستها اللغة التي نستعملها للحديث عن هذا العالم ووصفه؛ إذ يُؤكِّد لودفيج فتجنشتاين Ludwig Wittgenstein في كتابه "الرسالة الفلسفية المنطقية" ما يأتي: "١. ١- إن العالم كله حقائق وليس أشياء ، ١. ١٢- إن كلية الحقائق تحدد ما هو حالة وما هو ليس بحالة، ١. ١٣- الحقائق في فضاء منطقي هي العالم، ١. ٢- العالم ينقسم إلى حقائق."[٣٤] فصور العالم تتكوَّن من الحقائق، لا من الأشياء؛ ما يعني أن العالم -وَفْق رؤية فتجنشتاين- هو حقائق فقط، وأنه "ينقسم إلى حقائق، وكل حقيقة تنقسم هي الأخرى إلى حقيقة أبسط، وهكذا حتى تبلغ حقائق لا تتجزأ؛ لذا فإن الأشياء هي جوهر العالم... العالم في نظر فتجنشتاين حقائق، الحقيقة تستند إلى حقيقة ذرية أخرى تتكوَّن نتيجة تشكُّل الأشياء وارتباطها على نحوٍ معيَّن، واللغة بدورها قضايا، والقضية تسند إلى قضايا ذرية أبسط تتكوَّن من أسماء؛ هي عبارة عن رموز بسيطة."[٣٥]

وبذلك يُؤكِّد أصحاب الوضعية المنطقية أهمية اللغة التي نستخدمها في وصف هذا العالم؛ وذلك أن وظيفة اللغة هي الرسم والصورة؛ أي رسم العالم الخارجي وتصويره. "فالعالم يتكوَّن من حقائق facts، وهذه الحقائق لا يمكن تعريفها، ولكننا نستطيع شرح ما تعنيه حينما نقول: إن الحقائق تصنع افتراضات صحيحة أو خاطئة."[٣٦]

[٣٣] عبد الستار، فرج هاني. "مفهوم الرؤية الكلية: منظور فلسفي ومضامين منهجية"، ضمن: **مؤتمر الرؤية الإسلامية وانعكاساتها على التربية**، أبريل ٢٠٠٨م، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي وكلية التربية جامعة الزقازيق، مركز الدراسات المعرفية، ص ٣١٧.

34 Wittgenstein, Ludwig Tractatus Logico-Philosophicus ، "الرسالة الفلسفية المنطقية", translated by: D. F. Pears and B. F Mc Guinness, Taylor & Francis e- library, 2002, p. 5.

[٣٥] مجموعة من المؤلفين. **الموسوعة الفلسفية العربية**، إشراف: معن زيادة، بيروت: دار النهضة العربية، ط١، ١٩٨٨م، ج٢، ص٥٩٢.

36 Wittgenstein, Ludwig Tractatus Logico-Philosophicus, Introduction by Bertrand Russell, op cit. page xii-xiv. مقدمة كتاب الرسالة الفلسفية المنطقية بقلم برتراند رسل

وهذا ما أحسن توظيفه رودولف كارناب Rudolf Ca rnap ؛ إذ إنه استفاد من كتاب فتجنشتاين "الرسالة الفلسفية المنطقية"، وذلك بتحويله "إلى برنامج فلسفي عملي، مُهتدِياً بما قاله صاحب الرسالة، من أن معنى القضية هو منهج تحقُّقها، وحدَّد مهمة الفلسفة في التواضع والتحليل... مهمة الفلسفة هي تحليل العبارات والألفاظ من حيث بناؤها المنطقي العام... إن تحليل العبارات والألفاظ على هذا النحو هو نفسه تحليل للفكر، وعليه فإن موضوع الفلسفة كله هو موضوع اللغة، هذا ما يُؤكِّده القول: إن مهمة الفلسفة هي التحليل المنطقي للغة."[٣٧]

وهذا ما حاول كارناب فعله، وسعى إلى تحقيقه في كتابه "البناء المنطقي للعالم والمسائل الزائفة في الفلسفة؛"[٣٨] فما قدَّمه فتجنشتاين في "الرسالة الفلسفية المنطقية" يبدو أشبه بخطاطة حول العالم، استفاد منها أصحاب الوضعية المنطقية؛ فقد بدأ رسالته "بالحديث عن العالم، في حين أن الغرض الأساسي من فلسفته في هذه الرسالة هو تحليل اللغة، وبيان كيف يكون سوء فهمنا لمنطقها هو السبب في كثير من المشكلات الفلسفية، وكان الأَولى به أنْ يبدأ بحثه باللغة وتحليلها، إلّا أنه فضَّل أنْ يبدأ بتحليل العالم، وأرجع أنْ يكون مرجع تفضيله هذا إلى أن تحليل اللغة بالطريقة التي ذهب إليها في رسالته إنما يعتمد اعتماداً أساسياً على تحليل العالم"؛[٣٩] وذلك أن تصوُّر العالم قد أصابه الفساد بالتصوُّر العادي للإدراك المشترك، وقد عمل فتجنشتاين على بيانه وتوضيحه. "إلّا أن ذلك الاختلاف بين معنى العالم بالنسبة للفهم العادي، أو الإدراك المشترك، وبين معناه عند فتجنشتاين يزول إذا ما اعتبرنا أن الأشياء هي الأساس بالنسبة لتصوُّر كل من وجهتي النظر للعالم؛ لأن الوقائع عند فتجنشتاين ولو أنها هي الوحدات الأولى التي ينتمي إليها تحليلنا للعالم، إلا أنها في نظره ليست بسيطة، بل هي مُركَّبة من أشياء، بحيث تعتبر هذه الأشياء في نظره هي جوهر العالم."[٤٠]

غير أن هذه المسألة (أي تحليل العالم عن طريق اللغة) تستمر مع الوضعية المنطقية في استبعاد الميتافيزيقا؛ لأن مسائلها غير مُتحقِّقة الوجود في الخارج، وعباراتها خالية من المعنى. وهذا يعني "أن

[٣٧] بغورة، زاووي. **الفلسفة واللغة**، بيروت: دار الطليعة، ط١، ٢٠٠٥م، ص٨٨.

[٣٨] كارناب، رودولف. **البناء المنطقي للعالم، والمسائل الزائفة في الفلسفة**، ترجمة: يوسف تيبس، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠١١م، ص٢٦.

[٣٩] إسلام، عزمي. **لودفيج فتجنشتاين**، مصر: دار المعارف، ط١، د.ت، ص٨٠.

[٤٠] المرجع السابق، ص٨٨.

تعاليم الميتافيزيقا باطلة؛ لأنها تتعارض مع معارفها الأمبريقية، وفي حين قرَّر بعض منهم أنها تعاليم غير يقينية على اعتبار أن مشاكلها تتجاوز حدود المعرفة البشرية... عندما أقول: إن قضايا الميتافيزيقا المزعومة تخلو من أيِّ معنى، فإني أعني هذه العبارة بمدلولها الدقيق... إنها تخلو من المعنى إذا لم تكن ثمَّة جدوى من تقريرها... يقال دائماً عن كلمة ذات المعنى أنها تشير إلى مفهوم، فإنْ كانت لا تحمل معنى، وتبدو على ذلك أنها ذات معنى، قيل: إنها تشير إلى مفهوم زائف."[٤١]

إن عبارات الميتافيزيقا تدعونا -بحسب طبيعة موضوعها- إلى أنْ نرفضها؛ لأنها -كما قال زكي نجيب محمود- تحتوي على حدود وجمل لا تتقفّى أيَّ معنى. "فإذا قلنا عن أنواع الجملة أنها ثلاثة من ناحية كونها صادقة حتماً، أو باطلة حتماً، أو أنها ممَّا يحتمل الصدق أو الكذب، وجدنا الجملة الميتافيزيقية لا تندرج تحت أيِّ قسم من هذه الأقسام. الجملة الصادقة تُحلِّل مضمون الأخرى، كأنْ تقول: ٢ + ٢ = ٤، أو الجملة الباطلة حتماً التي ينقض شطرها الثاني شطرها الأول، كأنْ تقول: إن المثلث لا تحيط به ثلاثة أضلاع، والجملة التي تحتمل الصدق والكذب هي الجملة التجريبية... والجملة الميتافيزيقية، كأنْ تقول: الخير غاية الوجود."[٤٢] فهذه الأخيرة هي جملة خالية من المعنى، لا نستطيع الحكم عليها بالصدق، أو الكذب، أو أنها تحتمل الصدق والكذب، مثل الجمل الإخبارية في التجربة؛ فهي خالية من المعنى، ولا ندري معنى غاية الوجود فيها. وبهذا المعنى، ووَفْق هذا المعيار، حاول المناطقة الوضعيون إعطاء اللغة معنىً عن طريق التحليل اللغوي؛ لتخليصها من المسائل الزائفة التي أفسدت تصوُّرنا للعالم.

وبهذا التصوُّر، فإن الغرب سيتمكَّن من بناء النموذج الذي سيقوده في تلك الآونة إلى غاية الآن؛ إنه النموذج العلمي التقني الذي يرى أن كل النهايات ستُعقَد بيد العلم وحده الذي سيتكفَّل بالإجابة عن الأسئلة جميعها. أمَّا السؤال الذي يعجز العلم عن إجابته، ولا يخضع لدائرة المادة فهو سؤال خالٍ من أيِّ معنى، ولا فائدة من الانشغال بالإجابة عنه، وبخاصة مع الوضعية المنطقية التي تطرَّفت في علميتها، وبروز فكرة إنكار الميتافيزيقا وكل متعالٍ. "فالعلم وحده هو الذي يستطيع أنْ يُقدِّم للإنسانية تلك الحقائق الحيوية التي لا تُحتمَل الحياة بدونها، ولا يقوم المجتمع بغيرها. وإذا تصوَّرنا

[٤١] كارناب، رودولف. **حذف الميتافيزيقا عبر التحليل المنطقي للغة، ضمن آي- جي- مور، كيف يرى الوضعيون الفلسفة؟**، ترجمة: نجيب الحصادي، مصراتة: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ط١، د.ت، ص١٤٠-١٤١.

[٤٢] محمود، زكي نجيب. **موقف من الميتافيزيقا**، القاهرة: دار الشروق، ط٢، ١٩٨٣م، المقدمة، ص ط، ي.

إمكان الوصول إلى تلك الحقائق بطريق آخر غير طريق البحث المتأني، أصبح العلم السامي لا معنى له، وأمكن أنْ يكون عندنا الاطِّلاع الواسع وحُب استطلاع الهواة، لا العلم في أشرف معانيه، وأمسكت الطبائع النبيلة عن احتمال الاشتغال بالبحوث التي ليس لها آفاق ولا مستقبل. والذين يعتقدون أن التأمُّل الميتافيزيقي، والتفكير النظري يمكن أنْ يُقدِّما لنا الحقائق الأسمى دون الدراسة العلمية لما هو كائن، لا بُدَّ أنْ يحتقروا ما يبدو لهم من سَقَط المتاع، ويعتبرونه عبئاً ثقيلاً يُعوِّق التفكير."[٤٣]

وعلى هذا، يمكن اعتبار مصطلح "رؤية العالم" معنىً كلياً يُمثِّل مدخلاً إلى تكوين الكينونة الإنسانية والاجتماعية؛ لذا "يتوجَّب على الباحث تحديده -الرؤية إلى العالم- واستحضاره لفهم الظواهر الإنسانية المراد درْسها."[٤٤] ولا شك في أن الحداثة تُعَدُّ إحدى أبرز الظواهر الإنسانية الحاضرة في مختلف المستويات الثقافية، وأكثر دوراناً على الألسن، بوصفها حدثاً عالمياً ثقافياً تاريخياً.

وهذا الحدث -الحداثي- أبدعه الإنسان خلال مراحل عدَّة من تطوُّر الفكر الفلسفي. ولما كان هذا الأخير (الفكر الفلسفي) يبني أنساقاً فلسفيةً، يتناول كلٌّ منها تصوُّراً عن الوجود، ويتبنّى موقفاً من العالم؛ فإنه بهذا المعنى (أي النسق الفلسفي) يكاد يُطبِّق رؤية إلى العالم. "ومن هنا، فإن رؤية العالم قد تشير إلى الأنساق الإدراكية، والرمزية، فضلاً عن العقيدة، وأنساق المعرفة، والقيم، والثقافة، والفكر، والتفكير... ولعل هذه المطابقة ناجمة عن التوسُّع في استخدام مفهوم "رؤية العالم"، فظهرت مصطلحات أخرى تتداخل معانيها مع ذلك المفهوم، أو تستخدم المعنى نفسه."[٤٥] وعلى هذا، فـ"إن التفكير الفلسفي ليس مشغولاً ببلورة رؤى العالم، ومشدوداً إلى مطلب كلية المعنى فحسب، بل إن بنية النسق الفلسفي ذاته تكاد تطابق بنية مفهوم "الرؤية إلى العالم" أيضاً... وهذا التوافق أو المطابقة لا يجعل اتخاذ المفهوم أداة لتحليل الأنساق والمنظومات الفلسفية أمراً مُبرَّراً فحسب، بل يجعله ضرورياً من الناحية المنهجية أيضاً."[٤٦]

---

[٤٣] أدهم، علي. **مستقبل العلم لأرنست رينان**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٩٤م، ص٥٥.

[٤٤] بوعزة، **مفهوم الرؤية إلى العالم بوصفه أداة إجرائية لقراءة تاريخ الفكر الفلسفي**، مرجع سابق، ص٢٦.

[٤٥] عبد الفتاح، **العولمة والإسلام: رؤيتان للعالم**، مرجع سابق، ص٣٠.

[٤٦] بوعزة، **مفهوم الرؤية إلى العالم بوصفه أداة إجرائية لقراءة تاريخ الفكر الفلسفي**، مرجع سابق، ص٣٢.

وقد يتوارد إلى الذهن سؤال مفاده: ما هدف هذه المقاربة من جعل رؤية العالم أداة إجرائية لمقاربة الحداثة؟ ويمكن الإجابة عنه بـ"أن السيرورة الأساسية للأزمنة الحديثة هي غزو العالم من حيث هو صورة مدركة. وكلمة "صورة" تدل الآن على الهيئة التي يتَّخذها الإنتاج المتمثل، وفي هذا الأخير يسعى الإنسان جاهداً كي تسنح له الفرصة بأنْ يكون ذلك الموجود الذي يعطي قياساً لكل موجود، ويتحكَّم في جميع المعايير. وبما أن هذه الوضعية قد أصبحت تؤمن نفسها، تترابط وتُعبِّر عن ذاتها كرؤية للعالم، فإن العلاقة الحديثة بالموجود قد أصبحت في انتشارها الحاسم مواجهة بين جميع رؤى العالم."[٤٧] فالحداثة -بوصفها نسقاً فلسفياً- لا تعرف ثباتاً، وهي دائماً في حركة نحو المستقبل؛ إنها "حرة... اتصال وانفصال، استمرار وقطيعة، استمرار تحويلي لمعطيات الماضي، وقطيعة استدماجية له."[٤٨]

حتى إنها "تُفجِّر دينامية التحوُّل بما يستتبع ذلك من اهتزاز في القيم والعادات والهويات... وإنْ كان من العسير وضع سلَّم معياري مضبوط لقياس مظاهر الحداثة، فإن من الممكن -على الأقل- تعيين بعض مظاهرها وبعض درجاتها، كما أن من الممكن الحديث عن شبه الحداثة لقاء غياب صرامة المفهوم، إذ يمكن الحديث عن عتبة ودرجات ونسبية الحداثة."[٤٩] إذن، فالحداثة تمتاز بالتغيُّر، والتحوُّل، والسيرورة. ولكن، كيف يمكننا مساءلة هذا الحقل الفلسفي؟ أيُّ الأدوات الإجرائية تسمح لنا بطرح هذه المساءلة؟

لقد أشرنا سابقاً إلى أن بنية النسق الفلسفي تطابق بنية مفهوم "رؤية العالم"، وأن الحداثة هي بنية نسقية في الفكر الفلسفي لم تولد فجأة، وإنما نشأت خلال أطوار ومراحل من الفكر الفلسفي، فأصبحت تُمثِّل رؤية إلى العالم؛ هذه الرؤية التي تحاول أنْ تسأل العالم عن مُكوِّناته وعناصره والأسئلة الكبرى التي تحيط به، والتي تشغل الإنسان.

وبعد عرض عناصر رؤية العالم كما هي عند كانط وليو أبوستيل leo apostel، يمكننا إحكام السيطرة على الحداثة بوصفها رؤية إلى العالم، ومساءلتها وَفْق العناصر

---

[٤٧] هيدجر، **التقنية، الحقيقة، الوجود**، مرجع سابق، ص١٧٩-١٨٠.

[٤٨] سبيلا، محمد، وبنعبد العالي، عبد السلام. **الحداثة**، المغرب: دار توبقال للنشر، ط٢، ٢٠٠٤م، ص٥.

[٤٩] سبيلا، محمد. **مدارات الحداثة**، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط١، ٢٠٠٩م، ص١٢٤.

المشكلة للرؤية، ثم استخدام هذه الرؤية أداةً إجرائيةً لمساءلة الحداثة، فنُؤكِّد بذلك مشروعية طابع الرؤية للحداثة،[٥٠] وتصبح رؤية العالم أشبه بالبوصلة والمعيار المنهجي لمقاربة الحداثة على اختلاف أشكالها، ولا سيما أنها تُمثِّل آلية منهجية لقراءة الفكر الفلسفي -وبخاصة الحداثي منه- الذي كان شعاره التحوُّل والتغيُّر.

٢. أسئلة المصطلح الكبرى في الفلسفة:

لا شك في أن كل رؤية إلى العالم، أو تصوُّر (فلتن شاونغ weltanschauung) هو ذاتي في جوهره؛ فكل هذه المفاهيم تُمثِّل مصداقية لرؤية العالم. أمَّا جذور هذا المصطلح الفلسفي فتعود تحديداً إلى كتابات الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤م). وعلى عكس ما هو شائع، فإن استخدام هذا المصطلح لا يقتصر على الفلسفة فحسب، بل يتجاوزها إلى فضاءات أخرى عديدة، تشمل علم اللاهوت، والأنثروبولوجيا، والتربية.[٥١] فرؤية العالم، أو النظرة إلى العالم، لا تعني التصوُّرات البسيطة الذاتية، أو مجرد إعمال النظر الساذج الذي يُقصَد به فقط الإحساس البسيط، وإنما تُمثِّل مضمون أفكار المجتمع وساكنيه؛ إنها تشير إلى أفكارهم المتعلقة بماهية العالم الذي يعيشون فيه، وكذا مكانة الإنسانية والأفراد ومصائرهم، فما معنى المجتمع الذي أعيش فيه؟ ماذا يُقصَد بذاتيتي في هذا العالم؟ "ماذا نريد أنْ نفعل في العالم؟ وماذا نؤمل أنْ نحصل عليه منه؟ وما هو واجبنا تجاهه؟."[٥٢]

وهذه الأسئلة التي تُمثِّل أسئلة البدايات والنهايات، أو أسئلة المبدأ والمسير والمصير (الأسئلة الكبرى في الوجود الإنساني، التي تُمثِّل العناصر الـمُحدِّدة لرؤية العالم، وما

---

[٥٠] يرى بعض الدارسين أن الرؤية الحداثية هي التصور العلمي للعالم المحصور في جانبه المادي والحتماني، وأن "العالم يتكوَّن من مادة وطاقة، ويخضع لقوانين يمكن اكتشافها وفهمها، ثم التعبير عنها رمزياً؛ أي بلغة الرياضيات والمنطقيات، وأن الحياة عبارة عن تفاعلات كيميائية تكمن في الجينوم الذي تمكَّن العالم من فكِّ شيفرته، وتخضع الحياة للتطوُّر المبني على الانتخاب الطبيعي." انظر:

- تيبس، يوسف. **التصورات العلمية للعالم**، الجزائر: ابن النديم للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٤م، ص٤٠.

[٥١] الزين، **الثقاف في الأزمنة العجاف: فلسفة الثقافة في الغرب وعند العرب**، مرجع سابق، ص٤٣٢.

[٥٢] أسفيتسر، ألبرت. فلسفة الحضارة، ترجمة عبد الرحمن بدوي ومراجعة زكي نجيب محمود، كليمينت، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، وزارة الثقافة، ١٩٦٣، ص ٦٧.

يقارب هذه الأسئلة في محاولة صياغة تصوُّر كلي للعالم)؛ تمتد جذورها لتصل الفيلسوف الألماني كانط، الذي أفرد لكل سؤال منها كتاباً فلسفياً على النحو الآتي:

أ. "ماذا يمكنني أن أعرف؟"[٥٣] (سؤال المعرفة؛ السؤال الرئيس الذي تدور حوله فكرة الكتاب). وقد أفرد له كتاب "نقد العقل المحض".

ب. "ماذا يجدر بي أنْ أفعل؟"[٥٤] (سؤال الأخلاق). وقد أفرد له كتاب "نقد العقل العملي".

ت. "ماذا يحق لي أنْ آمل؟"[٥٥] (سؤال الدين). وقد أفرد له كتاب "الدين في حدود مجرد العقل".

ث. ما هو الإنسان؟ (سؤال الفلسفة والأنثروبولوجيا)، غير أنه أكَّد في رسالة... "أن المخطط الذي وصفته منذ وقت طويل للعمل الملقى على عاتقي في ميدان الفلسفة المحضة يحتوي على هذا السؤال الرابع."[٥٦]

ويمكن لنا أنْ نتلمَّس الجواب عن السؤال الرابع في رسالة كانط (ما هو التنوير؟)؛ إذ إنه يشير في مشروعه إلى الإنسان الذي يريد. يقول في ذلك: "ما هو عصر الأنوار؟ هو خروج الإنسان من حالة القصور الذي يبقى هو المسؤول عن وجوده فيها. والقصور والعجز عن استخدام الفكر عند الإنسان، خارج قيادة الآخرين، والإنسان القاصر مسؤول عن قصوره لأن العلة... ليست غياب الفكر... إنما انعدام القدرة على اتخاذ القرار وفقدان الشجاعة على ممارسته."[٥٧] وفيما يأتي مخطط توضيحي للأسئلة الكبرى وَفْق الرؤية الكانطية:

---

[٥٣] كانط، إيمانويل. **نقد العقل المحض**، ترجمة: موسى وهبة، بيروت: مركز الإنماء القومي، د.ت، ص٣٢، ٤٦.

[٥٤] كانط، إيمانويل. **نقد العقل العملي**، ترجمة: غانم هنا، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٨.

[٥٥] كانط، إيمانويل. **الدين في حدود مجرد العقل**، ترجمة: فتحي مسكيني، بيروت: جداول للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٢م، ص١١-١٢.

[٥٦] كانط، **نقد العقل العملي**، مرجع سابق، ص١٨.

[٥٧] كانط، إيمانويل. "ما هو التنوير؟"، ترجمة: يوسف صديق، **المجلة التونسية للدراسات الفلسفية**، عدد٣٨-٣٩، ٢٠٠٤-٢٠٠٥م، ص٦.

السؤال	الميدان	الكتاب
ماذا يمكنني أنْ أعرف؟	الإبستمولوجيا (نظرية المعرفة)	نقد العقل المحض
ماذا يجدر بي أنْ أفعل؟	الأكسيولوجيا (القيم، الأخلاق)	نقد العقل العملي
ماذا يحق لي أنْ آمل؟	الدين	الدين في مجرد حدود العقل
ما هو الإنسان؟	سؤال الفلسفة والأنثروبولوجيا	رسالة "ما هو التنوير؟"، والمشروع الكانطي كله يُحدِّد معنى الجواب (أيُّ إنسان يريد)

لقد حصر كانط الأسئلة الكبرى (لرؤية العالم) في أربعة أسئلة، ولكن هذه الأسئلة في كتابات المفكرين والفلاسفة الآخرين لامست اتجاهات أخرى في موضوعات البحث الفكري والفلسفي؛ إذ كانت "أهم وأدق محاولة لعرض كيفية بناء التصوير العلمي للعلم هي تلك التي أنجزها رودولف كارناب[٥٨] في كتابه "البناء المنطقي للعالم"؛ فإن ما قام به تلميذه ليو أبوستيل Leo Apostel من عرض الـمُكوِّنات الأساسية والأسئلة الجوهرية باعتبارها الشروط الضرورية التي يجب أنْ يستوفيها كل تصوُّر للعالم."[٥٩] فتصنيف الأسئلة الذي عرضه ليو أبوستيل قد يكون أدق من تصنيف كانط، ولعل سبب ذلك يرجع إلى تطوُّر البحث الفلسفي والمباحث الفلسفية، وكذا تغيُّر النظرة والتصوُّر حيال العالم، ولا سيما أن النظرة العلمية للعالم قد أثَّرت في هذا التصنيف لأنها تميل كثيراً إلى التجزئة الدقيقة. وفيما يأتي عرض ليو أبوستيل:[٦٠]

٥٨ كارناب، **البناء المنطقي للعالم، والمسائل الزائفة في الفلسفة**، مرجع سابق، ص١١١، ١١٢، ١٢٠.

٥٩ تيبس، **التصورات العلمية للعالم**، مرجع سابق، ص١٨-١٩.

60 Aerts, D., Apostel L., De Moor B., Hellemans S., Maex E., Van Belle H., Van Der Veken J., *Worldviews: From Fragmentation to Integration,* VUB Press, Brussels, 1994.

عنوان الكتاب: نظرات إلى العالم من التجزئة إلى التكامل، وللكتاب نسخة إلكترونية على الرابط:

-http://pespmc1.vub.ac.be/CLEA/Reports/WorldviewsBook.html

انظر أيضاً:

- تيبس، **التصورات العلمية للعالم**، مرجع سابق، ص٣٢.

السؤال	المقولة	المجال الفلسفي	التصوُّر العلمي	التصوُّر الديني
ما الذي يوجد؟	المادة فقط.	الأنطولوجيا/ الثيولوجيا	الذرة ومُكوِّناتها (الإلكترون، والبروتون، والنيوترون، والكواركات، والأوتار الفائقة...).	المادة، والفكر، والروح.
ما مصدر العالم؟ ما أصل الأنواع؟	أصل العالم أو الحياة.	التفسير	الانفجار الأكبر أوجد المادة. نشأة الأنواع المختلفة عن الطفرات. البقاء يكون للأصلح (الأكثر تكيُّفاً).	الخلق من عدم. خلق الله آدم من تراب، وخلق باقي الكائنات الحية.
إلى أين نسير؟	مصير العالم	التنبؤ	يتوسَّع الكون وينتشر في الزمان والمكان.	الحياة بعد الموت.
ما الخير؟ ما الشر؟	القيم الواجبة	نظرية القيم	الموضوعية، والعقلانية، والصحة، والشجاعة.	الخير هو تحقُّق مقاصد الشريعة، خلافاً للشر.
ما السلوك الذي يتعيَّن علينا اتِّباعه؟	السلوك	نظرية الأفعال	المنهج العلمي: البحث في الظواهر القابلة للقياس.	التسليم بالأوامر والنواهي.
ما الصواب؟ ما الخطأ؟	معايير الحقيقة	نظرية المعرفة	المعارف القابلة للتحقق أو الإبطال.	الكتاب المنزل هو مصدر المعرفة أولاً، والتجربة الدينية ثانياً.

فهذه الأسئلة تُمثِّل أهم التصوُّرات التي يحاول كل فرد أنْ يجيب عنها، مُحدِّدةً له طرائق العيش. "وعلى هذا النحو فإن كل الأفكار، سواء أكانت أفكار الأفراد أو أفكار الجماعات، ترجع في النهاية -على نحوٍ آخر- إلى نظرية في الكون. وكل عصر يعيش في شعور ولّده الذين يُؤثِّرون في هذا العصر."[٦١]

ولأن طبيعة البشر كذلك؛ إذ: "تميل أفعال الناس وأفكارهم إلى أنْ يحكمها -أو يُؤثِّر فيها على الأقل- مجموعة من الأفكار العامة عن طبيعة العالم ومكان الإنسان فيه، ويمكن أنْ نُطلِق على الأفكار العامة من هذا القبيل اسم صورة العالم، وتكون صورة العالم هذه عند العلماء والباحثين والفلاسفة متناسقة إلى حدٍّ ما، وإنْ كانت تعمل عند الغالبية العظمى من الناس بطريقة خفية، بوصفها الخلفية المعتمة لأذهانهم؛ لأنهم لا يلاحظونها بأنفسهم، بل يُسلِّمون بها تسليماً."[٦٢]

فإذا كانت الذات الإنسانية تميل إلى العيش في أُفق تُحاكَم فيه الأفعال والتصرفات والسلوك، ويصبح ذلك التصوُّر أشبه بالضرورة، أفلا يُعَدُّ ذلك نوعاً من الأيديولوجية؟ "بمجرد ما ننظر إلى الأمور من هذه الزاوية تتضح لنا الحقيقة التالية: ليست الأدلوجة بالنسبة للفرد قناعاً بقدْر ما هي أُفقه الذهني، يجد الفرد فيها كل العناصر التي يُركِّب منها أفكاره في صور متنوعة، يُوظِّف منها لأغراضه القليل أو الكثير، لكنه لا يستطيع القفز فوق حدودها، هي مرجعه الذهني والمنظار الذي يرى به ذاته ومجتمعه والكون كله."[٦٣]

لقد أخذت مسألة "رؤية العالم" تتبوَّأ مكانة مهمة بما تحوزه من عناصر للتطوُّرات العامة والخاصة، وما تحمله من وظائف حيوية في حياة الإنسان. وقد أشار إلى هذه الأهمية علي شريعتي بقوله: "إن موضوع الرؤية الكونية يجب أنْ يُطرَح في العالم بمثابة موضوع فلسفي، وعلم من علوم الاجتماع، وعلم الإنسان. إن الإنسان لا ينظر إلى الكون بالصورة والكيفية التي يتحدث عنها علم الجغرافيا أبداً. إن الرؤية الكونية للفرد

[٦١] شفايتزر، **فلسفة الحضارة**، مرجع سابق، ص٦٨.

[٦٢] ولتر، ستيس. **الدين والعقل الحديث**، ترجمة وتعليق: إمام عبد الفتاح، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٩٨م، ص٢٣.

[٦٣] العروي، **مفهوم الإيديولوجيا**، مرجع سابق، ص٥٣.

تُحدَّد طبقاً لأبعاد مجتمعه المتميزة المعنوية منها والمادية، وإن رؤية الأشخاص الذين يعيشون في مدينة من مدن العالم الخارجي تتغير وتتسع بتغيُّر معالم المدينة ومظاهرها واتِّساعها أيضاً، وحتى أن الصورة الذهنية للعالم لدى كل شخص، تتلاءم في إطار طبقيته من حيث السنخ والشبه والمقدار."[٦٤]

خاتمة:

انتهى البحث إلى أن الحداثة هي رؤية كلية إلى العالم، تحاول السيطرة عليه، والتحكُّم فيه، ومساءلته وَفْق تصوُّرها له؛ ولهذا يرى جان بودريار أن مظاهر التحديث تكاد تكون نمطاً كلياً حضارياً، ولا يَعُدُّ الحداثة تصوُّراً جزئياً؛ إذ يقول: "ليست الحداثة لا مفهوماً سوسيولوجياً، ولا مفهوماً سياسياً، وليست بالتمام مفهوماً تاريخياً، بل هي نمط حضاري خاص... يشعُّ عالمياً انطلاقاً من الغرب، ومع ذلك فهي تظل مفهوماً ملتبساً يشير إلى تطوُّر تاريخي، وإلى تغيُّر في الذهنية... في كل المجالات: دولة عصرية، تقنية عصرية، موسيقى، ورسم، وعادات، وأفكار عصرية؛"[٦٥] فهي تتغلغل في ثنايا حياتنا، وتُمثِّل حركة في الفكر والعلم والمعرفة وغير ذلك من المجالات الإنسانية، تأبى كل ما هو ثابت مُحدَّد؛ إنها رؤية تشارك في تشكيل جميع العناصر الأساسية في الوجود العالمي.

وعلى هذا، فإن الحداثة تُمثِّل رؤية إلى العالم تقوم على عناصر رئيسة، تُؤسِّس بها هذه الرؤية، بحيث تطرح على العالم أسئلتها، مُحاوِلةً فهمه. وهذه العناصر تحوي داخلها مجموعة من البنى، وكل بنية في أيِّ عنصر تُؤثِّر في الأخرى، وتنتج منها، وهي كالآتي: الرؤية الذاتية أنطولوجياً، والعقلانية بوصفها أساساً في المعرفة، والقول بالعدمية واللايقين في مجال القيم. وبذا يتأكَّد لنا صحة القول بمشروعية طابع الرؤية للحداثة؛ أي إن الحداثة

---

[٦٤] شريعتي، علي. **الإنسان والإسلام**، ترجمة: عباس ترجمان، مراجعة: حسين علي شعيب، العراق: دار الأمير للثقافة والعلوم، ط٢، ٢٠٠٦م، ص٣٥.

[٦٥] بودريار، جان. **الحداثة**، ضمن: **الفلسفة الحديثة، نصوص مختارة**، ترجمة: محمد سبيلا، وعبد السلام بنعبد العالي، الرباط: دار الأمان، ط١٩٩١،١م، ص٢٨٠.

هي رؤية العالم وَفْقاً لتلك العناصر التي تُسهِم في تشكيل هذه الرؤية؛ أنطولوجياً، وإبستمولوجياً، وأكسيولوجياً.

والغاية من بسط هذه المنهجية هي التدرُّب على طرائق التفكير المنهجي، وتقرير أنه يمكن إطلاق حكم قيمي على أيِّ رؤية إلى العالم بناءً على الأسئلة الكبرى آنفة الذكر، وبخاصة بعدما أصبحت المنهجية الفكرية تنحاز إلى الطرائق العلمية الوضعية، التي تُضمر السفسطةُ المنهجية للممارسةِ فعلَ التملُّص من الجواب الذي يزاحمها عبر تلك الأسئلة. ويبرز أيضاً "البُعْد الوظيفي للرؤية كفاعل داخل النسق الثقافي والاجتماعي، ووجوب الاهتمام بها في التحليل السوسيولوجي من أجل مقاربة ذلك النسق."[٦٦] فهي آلية تُقلِّل من التحيز المعرفي، وتقف مناهضةً ومقاومةً لهيمنة البراديغم الكمي؛ لتكون زاوية النظر والرؤية مفتوحةً في النقد الفلسفي للفكر الغربي، وقادرةً على استنطاق التصوُّرات الضمنية المهيمنة في كل رؤية، وهذه الأخيرة (الرؤية) هي التي تُمثِّل القوة الباعثة في السلوك لدى الأفراد. فأيُّ عملية إصلاح لا يمكن لها أنْ ترى النور إلّا بإصلاح الرؤية إلى العالم.

[٦٦] بوعزة، **مفهوم الرؤية إلى العالم بوصفه أداة إجرائية لقراءة تاريخ الفكر الفلسفي**، مرجع سابق، ص٢٧.